

مذكراتي في نصف قرن

صاحب هذه المذكرات أحمد شفيق باشا. اقرأ الكتب بالقلم لأنى أعانيها وأعيشها ساعة القراءة وأسجل رؤيتي لتوها، حرصا على بكاراة الإحساس.

وتفرض الدراسة نفسها على قراءتى فألتزم بقراءة الكتاب من اوله ومع ترتيب الفصول ولكنى فى هذا الكتاب بدأت بقراءة القسم التاريخى السياسى منه ووقفت طويلا عند الثورة العراقية باعتبارها رواية شاهد عيان فالمؤلف من رجال السراى - حتى ولو كان منحازا فمهما تحسب النقد العلمى أن يكون شابها الهوى لقرب كاتبها من الحاكم أى الخديوى فى وقته ولكن هذا السبب نفسه عامل توثيقى بما يتيح من مصادر الأحداث وبواطنها على أن المؤلف ذكر ما للحاكم وما عليه بقدر ما تستطيع بشرية الإنسان.. على أن المؤلف لحقه غبن من السراى، يوما فقد فصل من عمله. يقول (لما اشتد العسر المالى وتقرر تنازل الأسرة الخديوية عن أملاكها، كان أول من نفذ هذا القرار هو ولى العهد توفيق باشا فتنازل عن تفانيشه وتقرر الاستغناء عن كثير من الموظفين بها وكنت ضمن الذين استغنى عنهم فى ٢١ ابريل سنة ١٨٧٩). وان كان عاد الى السراى فى آخر يونيه من العام نفسه.

نسيت عصرى وأنا اقرأ الثورة العراقية فبكيت واحسست عذابات شعبنا وقتئذ احساسا عميقا كأنى خضتها.. تجرعت غصصا كثيرة والناس الطيبون من اهلنا اصحاب هذا التراب يفتشهم الأجنبى فى طريقهم من مكان الى مكان..

من حق القارئ أن أعرض الكتاب من أوله.. وهنا يقف المؤلف وقفة عند عصر اسماعيل الذى شاهد جزءا منه. أخذ كثيرا وأعطى كثيرا.

أصلح كثيرا وخرب كثيرا.. يقول المؤلف (كان ثالث ثلاثة من ذوى الفخامة والعظمة والأبهة والإسراف: هم السلطان عبدالعزيز والامبراطور نابليون الثالث واسماعيل خديوى مصر.

ومن غريب الاتفاق ان هؤلاء العظماء الثلاثة عاشوا فى عصر واحد تقريبا. فكان بين سيرهم كثير من وجود الشبه. وكانت بينهم رابطة صداقة ومودة. ثم حكم ثلاثتهم مددا متقاربة وختم كل عهده فى ظروف متشابهة).

والمثل من مصر:

المناسبة: فتح قناة السويس

يقول المؤلف والواقع يؤيده (بقيت هذه الاحتفالات مضرب المثل في الأبهة المقطوعة النظير بما بعث الامبراطوره اوجينى ان تبرق الى زوجها الامبراطور يوم حفلة الافتتاح تقول له: «وصلت بورسعيد بصحة جيدة. الاستقبال فخم، لم أر فى حياتى ما يماثل ذلك»).

وقد أنفق اسماعيل المديون - على هذه الاحتفالات مليوناً وأربعمائة ألف جنيه مصرى.

وليت الأمر اقتصر على الداخل بل ان اسماعيل أغدق فى الخارج وعلى من لا يعرفهم (ذوى بارو باشا الفرنسى وكان رئيس الديوان الافرنجى فى عهد اسماعيل أن) اسماعيل فى احدى زيارته لباريس سمع بجمال قصر لأحد أغنياء الباريسيين فأظهر لمحدثه رغبة فى مشاهدة القصر هياماً بالفن الجميل. فلما علم صاحبه بذلك بادر بدعوة الخديوى الى مأدبة اقامها له. فكانت له فتاة جميلة أعجب بها سموه. وبعد الفراغ من تناول الطعام سأل اسماعيل صاحب القصر عما اذا كان يرغب فى بيعه وعن الثمن الذى يريده فيه. ولم يكن الرجل يود التفریط فى قصره.. ففكر فى الخلاص من هذا المأزق بأن طلب لقصره ثمناً باهظاً قدره بخمسة ملايين فرنك راجياً ان يحول ذلك دون رغبة الخديوى فى الشراء ولكن خاب ظنه. فقد قبل الثمن وأمر باستدعاء كاتب العدل (المخصص لكتابة العقود) ليكتب العقد. فسأل عن اسم البائع وقيده.. ثم سأل عن اسم المشتري وعندئذ اشار اسماعيل بإصبعه الى ابنة رب الدار قائلاً:

(مدموازيل....) وبذا عاد القصر لابنه صاحبه وغرم اسماعيل ثمنه الباهظ ومع هذا حفل عصره بالنوايغ فى العلوم والفنون وبعضهم كانت له شهرة علمية فى تخصصه مثل محمود باشا حمدى الفلكى الذى خطط خريطة مصر الحديثة لأول مرة وقد شهد عشاء الفلك الأوربيون بنبوغه فى علمه وذكره فى كتبهم.

أقول لو أن الأمر شورى واستطاع اعلام عصره ان يوجهوا دفة الحكم لما واجه هذه النهاية الدامية التى طوت صفحته ولكن آفة الحكم الفردى، التسلط.. ولانحتاج هنا بإنشائه مجلس نواب فالمؤلف صاحب المذكرات يروى عن والده ان هذا المجلس عند اجتماعه، دعا السكرتير الأعضاء أن يقسموا أنفسهم ثلاثة أقسام:

الأول حزب اليمين ويؤيد الحكومة

الثانى حزب اليسار وهو المعارض له

الثالث حزب الوسط وهو المعتدل

فلم يكن من أعضاء المجلس إلا أن انحازوا جميعا الى جهة اليمين قائلين وكيف نكون ضد الحكومة؟!

وأنا لم أضحك من هذه القصة.. فإن ظاهرها يخفى حقيقة مؤلمة على العكس تماما مما يبدو من سطحها.. ان النواب الذين قالوا وكيف نكون ضد الحكومة لعلهم كانوا يسخرون ولا ينافقون.. فما دامت الحكومة لن نغير انتخابا فهي صاحبة السلطة بما هي صاحب التعيين فكيف يخالفونها؟ ولعلهم أذكاء أيضا الى الحد الذى توجسوا، معه، من التقسيم الذى طرحه سكرتير الحكومة.. وتحسبوا أنه يريد أن يستدرجهم ليعرف المعارضين.

على كل حال، تثبت التجارب فى كل عصر أن الاستبداد يأكل نفسه حتى لو ذوب فى بحر المرقناتير من السكر..

ويأسى القارئ مرة أخرى على حدائق القاهرة. وندع الان حديقة الأزبكية جانبا فمن حقها أن تستأثر بوضوح كامل واقف الان عند حى شبرا الذى يكاد يختنق الان لنقرأ فى الكتاب ان شبرا كانت (بمزارعها التضررة ومناظرها الجميلة، هى المكان المطروق للتنزه والرياضة عادة. وكان يقصد اليها المرتاضون مشاء وركباناً، وكان المار يرى الدواب المظهمة تغدو وتروح. وأحيانا واقفة فى انتظار أصحابها ممن حضروا اليها للرياضة، مكبلة فى اللجم، صفوفوا على جوانب المزارع. كذلك كانت ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المظهمة تحمل افراد العائلة الخديوية ومن يداينها من كبار السراة والأعيان، يتقدم هذه العربات قمشجية (سياس) لافتتاح الطريق واتماما لمظاهر الأبهة. وكان يرى بين المتنزهين فخرى باشا ممتطيا جواده الجميل وأمامه (السايس) كما كان يفعل ذلك بعض ذوات العاصمة.

ويظل شارع شبرا وقتئذ صفوف من شجر الجميز العتيق المروع من عهد (محمد على باشا) هل فى شبرا الان صف واحد من الأشجار؟

صورة أخرى بين الأسس واليوم

عندما تحدث الكتاب عن أفراس الأنجال قال (كان كل جهاز من الجهايزات الأربعة، يطاف به في أنحاء المدينة محملاً على عربات تحت حراسة الجند الراكب، تتقدمها فرقة موسيقية إرسالها إلى سراي العروس، وكانت الشوارع التي يمر بها مزدحمة بالجماهير الغفيرة وكذلك. كانت سرقات المنازل والفنادق خاصة بالمتفرجين.

بقي أن نعرف مقتنيات الجهاز الذي يمر بين (الجماهير الغفيرة) دون أن يلصقه أحد

يقول المؤلف (كان جهاز كل من عروس البرنسيين حسين وحسن. وكذلك جهاز البرنسيستين فاطمة هانم وأمينة هانم. منسقا في ثلاث غرف فيحة بالقصر العالي لعرضه على الأنظار. وهو يتكون من أنواع الحلوى المختلفة الأشكال المرصعة بالجواهر والماس. هذا عدا الأواني الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بأطرافها الذهبية المحلاة بالجواهر وأقماس السبوكات التي من الكهرمان المطوق بالذهب المحلى بالجواهر.

وكما تعرض هذه الجواهر على البسطاء في الطريق نعرض على رواد القصر العالي ترى أين ذهب هذا كله؟ لقد رأيت قصر مجوهرات محمد على في الاسكندرية واستطيع ان أقول ان ما فيه بالنسبة الى هذا عينات

مع اعتبار أن اسرة محمد على ليست الأنجال الأربعة فقط.

كان المجتمع منذ قرن واحد يعمره الخير ومن أمثلة هذا في الكتاب بادارات منها:

(كان المنبع في طبقات الأغنياء، عند ختان أبنائهم أن يأخذوا أبناء أصدقائهم لإجراء عملية الختان لهم في منازلهم، ويقفون بها حتى يتم شفاؤهم.. وبعضهم كان يدعو إلى منزله في هذه المناسبة أبناء الفقراء فتعمل لهم العملية، ويقدم لهم الطعام المناسب وبمناسبة أفراس الأنجال التي تحدث عنها منذ قليل، يقول الكتاب ان (اسماعيل) (دعا تلاميذ جميع المدارس وطلبها للاشتراك فيها بتناول الطعام، ومشاهدة الألعاب، وسماع الأغاني)

والخديوى توفيق له في الكتاب صورة جالسا القرفصاء امام قراونة يذوق الطعام قبل ان يقدم الى الطلبة حتى يطمئن على جودته!

ومن طرائف أفراح الأنجال أن الممثلين بين الفصول كانوا (يخرجون لتناول المرطبات في محل مخصوص معصوبى الأعين، ويقودهم الأغوات الى المقصف الموجود داخل الحريم ويفعلون مثل ذلك عند عودتهم لاستئناف التمثيل.

ومن طرائف أفراح الأنجال، زفة العروس وزفة العريس فى كل وسط حبشية ولكن عروس الأمير (كان يصطف الأغوات صفين. ويد كل واحد «فنيار» ذو شمععات تعطى ضوءا كبيرا، وبين هذين الصفين تسير العروس فى أبهى حلل العرس مسدولا على وجهها الدواك الذهبى الرفيع، وتكون العروس محلاة بأكثر ما يمكن أن تحمله من الحللى والجواهر الكريمة، ويسندها فى مشيتها اثنان من الأغوات، ثم تبدو عندئذ البدره الفضية التى تحملها احدى (القلقوات) فى كيس كبير.

وعندما تصل العروس الى غرفة العرش «الكوشة» تجلس على مقعد عال بين أمها وبين الوالده (باشا)

ويكثر التزاحم على الدخول لمشاهدة العروس فى حليها الجميلة بسهولة وهناك تنثر البدره الذهبية وبدلة العروس مرصعة من الرأس الى القدم بالماس مرة أخرى أقول اين هذا كله؟ أى ريح ذهبت بهذا كله؟ حين زرت متحف اللوفر بباريس رأيت جناحا ضخما يضم نفائس ملوك فرنسا واباطرتها.. وعندما زرت قصر الملك بمديرد وهى التى قامت بها ثورة أهلية- رأيت كل شىء فى مكانه.. وأغرب من هذا انى عندما زرت قصر توب كابى باستامبول رأيت كنوز السلاطين كما هى بل رأيت طبقا ضخما من الكريستال قطره نحو ٧٠ سم وعمقه او ارتفاعه نحو ٤٠ سم مملوء بأحجار الزبرجد المفردة وكان من السهل الاختطاف والاعتراف اى رز، حل بمصر!!

إننى لا أحب المتنبي مع فحولته شاعرا، لأنه اساء اليها حين أحنته كافور، ولكنى مع هذا لا أجد أصدق من بينه فى وصف هذه الحال:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها.. فقد بثمن وما تفتى العناقيد

نترك أفراح الأنجال ونأتى الى الزواج بعامة وهو فى ذلك العصر لا يخلو من الطرائف. يقول المؤلف: (كانت رسومه تتم خفية عن الزوجين، فلا يعلمان عنها شيئا، وكانت الأسرة هى التى تتولى أمر الخطبة، أو ينيبون عنهم الخاطبة دون ان يكون للخطيبين نفسهما أية ارادة. بل لقد كان

الغلو فى ذلك يصل الى حد ان بعض افراد اسرة الخطيب نفسها لا تعرف شيئا عن خطيبة ابنها الا ما ترويه (الخطابة) وقد حدث لى ذلك مع أسرة شريفة، فبعد أن انتخبتنى هذه الأسرة لأكون زوجا لابنتها، عدل عن ذلك لمجرد رغبة والدتى فى رؤية الفتاة المخطوبة!!

واذا كان تدفق الخير، واردا فى الأفراح لانباط النفس فتنبسط الكف ثم طبيعة الفرح نفسه وهو يردى الإنسان، فإن العجيب ان يروى المؤلف (كان نظام الجنابة بالنسبة للأسر الفنية أن يتقدم الموكب و «الضحايا» من الجاموس او البقر ثم «الكفارة» وهى جمل يحمل صندوقين «صحارتين» مملوءتين بالخبز، وقد اقتعد غارب الجمل رجل يوزع طول الطريق مما عبثت الصناديق من الخبز، كما يتبعه جمل اخر على نفس الصورة لتوزيع التمر الجاف والفاكهة ثم طائفة من عسكري البوليس ركباناً او مشاة ثم أرباب الطرق المختلفة المولوية، وقراء دلائل الخيرات وبعد الانتهاء من وصف الموكب الجنائزى يقول (وتنحر الذبائح عند باب القبر عند وصول النعش وتوزع لحومها على الفقراء).

اذن هو الاحسان والعطاء يلزم ويلازم الافراح والاتراح سواء بسواء حتى الموت لا ينسى المرزوثين، الخير.

الثورة العربية

سبقتها ثورة فكرية انفجرت وفجرت مشاعر النفوس ضد الديون وضد تدخل الأجانب.. ودخل الحلبة ادباء وخطباء ومن وراء هؤلاء جريدة «الطائف» حيث كان يكتب عبدالله التديم وجريدة «المفيد» حيث يكتب حسن افندى الشمسى.

(وانقلبت مصر مسرحاً للخطباء فى كل مجتمع وناد حتى فى المساجد، ولم يبق مجلس للسمر او للاحتفال بعرس أو غيره الا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد اقصائهم عنها وغيرهم حتى لقد سمعت ان محمد عثمان المغنى الشهير كان اذا سئل فى اى فرح تغنى الليلة؟ «أجاب» فى الفرح الفلانى مع عبدالله التديم)

واشتغلت مصر بالثورة العربية وعاشت فى حماس جارف.. كانت الثورة حلم مصر التقليدى بالمخلص بل تجاوز تأثير الثورة والشوار حدود مصر الى خارجها فى كل قطر. يقول

المؤلف (شغلت الثورة العربية اذهان الشرقيين قاطبة ولاسيما الشعب الهندي، حتى علمنا ان السفارة الانجليزية في الآستانة، ابتاعت من صاحب جريدة (الجوانب) التي كانت تصدر يومئذ باللغة العربية، مليون نسخة من العدد الذي نشرت فيه ترجمة الارادة السلطانية، التي أعلن فيها عصيان عرابي، لكي توزعها في الهند وتستعين بالأمر الذي تحدته على اخماد التشيع للعراقيين، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر المجترة بشر العواقب).

وهكذا اجتمع على عرابي الانجليز وديلسبس ورشوة الانجليز، البدو، ومنشورات الخديوى يقول المؤلف.

(ومما ساعد على نجاح الانجليز، ان الجناب الخديوى عين محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب مندوبا خديويا، وبمعيته بعض ياوران سموه لدى الجنرال ولسلي، وناط به نشر الدعوة، وخصوصا بين العرب، لمساعدة الجيش الانجليزى الذى يحارب العراقيين باسم الخديوى. اصف الى ذلك الهبات المالية التي كان الانجليز يقدقونها على المريان. وخصوصا الذين قيدوا منهم بقلم الاستعلامات الانجليزى).

وتوالت الأحداث سريعا ودفعنا الدم والأيام وعلى ارض التل الكبير وحده بل على امتداد سبعين عاما تساقط فيها الشهداء شهيدا وراء شهيد وما أجل المقدى والمفتدى.

وان المرء ليقف حائر امام شخصية توفيق.. ان صورته فى هذا الكتاب تختلف اختلافا كبيرا بين البداية والنهاية كانت بدايته واعده. سأل مرسل التيمس عن الخطة التي ينوي اتباعها فى مصر فقال له فى وضوح وحسم انه لا يرغب فى عودة النظار الأجانب وانه معتزم السير فى الاصلاح بأمانة واخلاص وفى جو خال من الدسائس وان اوربا يجب عليها ان تعطى مصر الوقت الكافى لبيان خبرتها وحسن ادارتها وان لا مانع مع ذلك من استخدام الاوربيين، كمرشدين لا مسيطرين، وكان مما قاله للمرسل فى شأن رجوع الناظرين الاجنبيين: ألا فلتقطع أسباب المخادعة والمناظرة والانتقام.

وفى هذا الرد حكمة وكياسة وحسم ودلالة أخرى يستشفها التحليل من خطابة تكليف رياض باشا بتشكيل الوزارة (النظارة) لم اقصد بترأسى مجلس النظار ان اعيد (السطوة الشخضية.. وإنما راعيت فى ذلك ضرورة الحال. وملت مع الرغبة فى تقريب علاقتى بأعضاء

النظارة فلم يكن فى خاطرى عزم نهائى، خصوصا فيما يغاير المبدأ الذى اتخذته يوم ولايتى وهو أن أحكم مع مجلس النظار، وبمجلس النظار).

وهو منحنى عاقل رشيد.

فى بدايته استهل بزيارة الفيوم فدعاه أهل الصعيد فلبى الدعوة وزار اقليم الصعيد اقليما اقليما وفى كل اقليم كان يؤدى الصلوات مع الناس ويوزع الصدقات ويوزر البيوتات الكبيرة وكبار رجال المدينة ومدير المدينة فى بيته فى بساطة وتواضع. هل هذا الذى قال لمرابى فيما بعد «اتم عبيد احساناتنا»!!

كان يدعو فى زيارته مستقبله الى موأته. كان يطوف المدينة راكبا جواده بلا استحكامات.. بلا مدرعات بلا شل مرور يسير والطبيون من أهلنا فى المدن يحيطونه بمشاعرهم وليس بمستغرب فقد أحاطوا اسماعيل على الرغم من الديون وما نجم عنها فى طريقه الى المحطة بعد خلعه من العرش. إنها مصر النبيلة.

كان توفيق فى بدايته يبنى المساجد على نفقته الخاصة. ويشجع التعليم الى الحد الذى يشهد الامتحانات ويمنح الجوائز كان ينشئ المدارس ويدفع نفقات تعليم بعض التلاميذ.

حدد توفيق احساسا منه بضائقة البلد، المخصصات الخديوية ثم اختزلها وضغطها. يقول المؤلف (كان اول عمل افتتح به عهده تنظيم مخصصات الأسرة الخديوية. اذ كانت مرتبات افرادها فى عهد اسماعيل غير محدودة ولا معلومة حيث كانت الخزانة تحت تصرفه، يأخذ منها ما شاء ويهب منها لمن شاء.. فرأى الخديوى توفيق ان يحدد هذه المرتبات وأخذ مجلس النظار بناء على هذا رأى يعين هذه الرواتب ثم عاد توفيق وتنازل عن ٢٠,٠٠٠ عشرين ألف جنيه من مرتبه لأضافتها الى مرتب والده ثم أمر بإلغاء المرتب الخاص بوالده وحرمه فاقصد بذلك خمسة وخمسين ألفا).

وهنا يتجسد عنصر المشاركة وعنصر القدوة الحقيقية.

هذا حين قرر زيادة الميزانية المخصصة للتعليم الى الضعف. وصدرت لائحة بتنظيم أعمال الرى وتوسيع نطاقها وروجعت القوانين المصرية.. ولكنه استسلم لدسائس القصر وشايات ممثلى

الدول الأجنبية الذين كانوا يخشون الوطنيين وحركتهم الفكرية ولم يفتن الى أن هؤلاء المتفعين، أصحاب غرض ومصالح شخصية.. لقد آفاق أخيرا ولكن كان الوقت متأخرا.

يحكى المؤلف أنه بعد موقعة التل الكبير المشنومة سعى اليه المتزلفون والأجانب لتهنته ولكن توفيق بكى. يقول المؤلف (أما توفيق فعلى الرغم من أنه كان يعلم ان انكسار العرايين يؤول الى توطيد عرشه، فقد عز عليه ان يتم له ذلك على يد الأجانب وعلى حساب بلاده ومذلة شعبه. وقد كان سموه من الأمراء الذين نصبوا نفوسهم الى عروش وطيدة الأركان، ولكن مدعمة بحب الرعية وولائها وليس الى عروش واهية قائمة على رءوس الأسنة وشفا السيوف واذا كان الارتياح الذى بدأ على محياه بانهزام العرايين مشوبا بالحزن وكانت الدموع التى تساقطت من عينيه ساعة وزود النبأ معبره عن شعوره أصدق تعبير)

لقد خانه التوفيق كما خان عرابى كان باستطاعتها ان يتلاقيا فى طريق الإصلاح واقالة عشرة البلد وفى حياته لهما حياة وكرامة..

ثم ذهب توفيق وعرايى بعد أن تجرعا غصصا شتى ولكن مصر فى النهاية هى التى دفعت الثمن.. مصر التى لم تبرأ جراحها الا بعد سبعين عاما.

ولكنها فى النهاية هى الباقية.